كتاب آداب تلاوة القرآن

وهو الكتاب الثامن من ربع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده في أربعة أبواب الباب الأول في فضل القرآن وأهله الباب الثاني في آداب التلاوة في الظاهر الباب الثالث في الأعمال الباطنة عند التلاوة الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته فضيلة القرآن قال صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه اللهتعالى حديث من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره حديث ما من شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا وللطبراني من حديث ابن مسعود القرآن شافع مشفع ولمسلم من حديث أبي أمامة اقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعا لصاحبه وقال صلى الله عليه وسلم لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار حديث لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن حديث أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم أيضا إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا حديث إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام الحديث أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه حديث خيركم من تعلم القرآن وعلمه أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين حديث يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب الشاكرين أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد من شغله القرآن عن ذكري

أو مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وقـال حسن غـريب ورواه ابن شـاهين بلفظ المصـنف وقـال صـلى الله عليه وسـلم ثلاثة يـوم القيامة على كـثيب من مسك أسـود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل والخ أم به قوما وهم به راضــون حــديث ثلاثة يــوم القيامة على كــثيب من مسك الحديث تقدم في الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم أهل القرآن أهل الله وخاصته حـديث أهل القرآن أهل الله وخاصته أخرجه النسائي في السكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بإسناد حسن وقال صلى الله عليه وسلم إن القلوب تصـدأ كما يصـدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها فقال تلاوة القرآن وذكر الموت حـديث إن هـذه القلـوب تصـدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر الموت أخرجه البيهقي في الشـعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال صلى الله عليه وسـلم لله أشد أذنا إلى قـارىء القـرآن من صاحب القينة إلى قينته حديث لله أشد أذنا إلى قارىء القـرآن من صـاحب القينة إلى قينته أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حـديث فضـالة بن عبيد الآثـار قـال أبو أمامة الباهلي اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فـإن الله لا يعـذب قلبا هو وعـاء للقـرآن وقـال ابن مسـعود إذا أردتم العلم فـانثروا القـرآن فـإن فيه علم الأولين والآخرين وقال أيضا اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حـرف منه عشر حسـنات أما إني لا أقول الحرف ألم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حـرف وقـال أيضا لا يسـأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سـبحانه ورسـوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القـرآن فهو يبغض الله سـبحانه ورسـوله صـلى الله عليه وسلم وقال عمرو بن العاص كل آية في القرآن درجة في الحنة ومصباح في بيــوتكم وقـال أيضا من قـرأ القـرآن فقد أدرجت النبـوة بين جنبيه إلا أنه لا يـوحى إليه وقـال أبو هريرةإن البيت الذى يتلى فيه القـرآن اتسع بأهله وكـثر خـيره وحضـرته الملائكة وخـرجت منه الشــياطين وإن الــبيت الــذي لايتلى فيه كتـاب الله عز وجل ضـاق بأهله وقل خـيره وخــرجت منه الملائكة وحضــرته الشــياطين وقــال أحمد بن حنبل رأيت الله عز وجل في المنام فقلت يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك قال بكلامي يا أحمد قال قلت يا رب بفهم أو بغير فهم قال بفهم وبغير فهم وقال محمد بن كعب القرظي إذا سـمع النـاس القـرآن من الله عز وجل يـوم القيامة فكـأنهم لم يسـمعوه قط وقـال الفضـيل بن عيـاض ينبغي لحامل القـرآن أن لا يكـون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفـاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه وقال أيضا حامل القـرآن حامل راية الإسـلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسـهو مع من يسـهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القـرآن وقـال سـفيان الثوري إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه وقال عمرو بن ميمون من نشر مصحفا حين يصــلي الصــبح فقــرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الــدنيا ويروى أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ علي القرآن فقرأ عليه إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الآية فقال له فأعاد فقـال والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسـفله لمـورق وأن أعلاه لمثمر وما يقـول هـذا بشر حديث أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ علي القـرآن فقرأ عليه إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتـاء ذي القـربى فقـال أعد فأعـاد فقـال إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر ذكــره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عبـاس بسـند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقبة وكـذا ذكـره ابن إسـحاق في السـيرة بنحوه وقال الحسن والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقه وقال الفضيل من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطـابع الشـهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الــرحمن قلت لبعض النساك ما ههنا أحد نستأنس به فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال هذا وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم السـواك والصـيام وقراءة القـرآن في ذم تلاوة الغـافلين قـال أنس بن مالك رب تـال للقـرآن والقـرآن يلعنه وقال ميسـرة الغـريب هو القـرآن في جـوف الفـاجر وقـال أبو سـليمان الـداراني الزبانية

أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن وقال بعض العلماء إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له مالك ولكلامي وقال ابن الرماح ندمت على استظهاري القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة وقال ابن مسعود ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا ولاينبغي له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا وقال صلى الله عليه وسلم أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها حديث أكثر منافقي أمتي قراؤها أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن لهيعة وقال صلى الله عليه وسلم اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه حديث إقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم ما آمن بالقرآن من استحل محارمه حديث ما آمن بالقرآن من استحل محارمه أخرجه الترمذي من حديث صهيب وقال ليس إسناده بالقوي وقال بعض السلفإن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها فقيل له وكيف ذلك فقال إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم نفسه ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم وقال الحسن إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل حديث ابن عمر وحديث جندب لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث تقدما في العلم وقد ورد في التوراة يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة الأول في حال القارىء وهو أن يكون على الوضوء واقعا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك قال الله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل الثاني في مقدار القرآن وللقراء عادات مختلفة في

الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مــرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقـديرات قـول رسول الله صلى الله عليه وسـلم من قـرأ القـرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه حـديث من قــرأ القــرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه أخرجه أصـحاب السـنن من حـديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمـذي وذلك لأن الزيـادة عليه تمنعه الترتيل وقد قـالت عائشةرضي الله تعالى عنها لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا إن هذا ما قرأ القرآن ولا سـكت وأمر النـبي صــلى الله عليه وســلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يختم القــرآن في كل ســبع حديث أمر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم عبد الله بن عمـرو أن يختم القـرآن في كل أسـبوع متفق عليه من حديثه وكـذلك كـان جماعة من الصـحابة رضي الله عنهم يختمـون القرآن في كل جمعة كعثمـان وزيد بن ثـابت وابن مسـعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم ففي الختم أربع درجـات الختم في يـوم وليلة وقد كرهه جماعة والختم في كل شـهر كل يـوم جـزء من ثلاثين جـزءا وكأنه مبالغة في الاقتصـار كما أن الأول مبالغة في الاسـتكثار وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسـبوع مـرتين تقريبا من الثلاث والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ويجعل ختمه بالنهـار يـوم الاثـنين في ركعـتي الفجر أو بعـدهما ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعـتي المغـرب أو بعـدهما ليستقبل أول النهـار وأول الليل بختمته فـإن الملائكة عليهم السـلام تصـلي عليه إن كـانت ختمته ليلا حـتى يصـبح وإن كـان نهـارا حـتى يمسي فتشـمل بركتهما جميع الليل والنهـار والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسـبوع وإن كـان من السـالكين بأعمـال القلب وضـروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مـرة وإن كـان نافذ الفكر في معـاني القـرآن فقد يكتفي في الشـهر بمـرة لكـثرة حاجته إلى كـثرة الترديد والتأمل الثالث في وجه القسمة أما من ختم في الأسبوع مـرة فيقسم القـرآن سـبعة أحـزاب فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم أحزابا حديث تحزيب القرآن على سـبعة أجـزاء أخرجه ابن ماجه من حـديث أوس بن حذيفة في حـديث فيه طـرأ على حـزبي من القـرآن قـال أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحـدى عشـرة وثلاث عشـرة وحـزب المفصل وفي رواية للطـبراني فسـألنا أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كيف كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يجـزىء القـرآن فقـالوا كـان يجزئه ثلاثا فـذكره مرفوعا وإسـناده حسن فـروي أن عثمـان رضي الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائـدة وليلة السـبت بالأنعـام إلى هـود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثـنين بطه إلى طسم موسى وفرعـون وليلة الثلاثـاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس وابن مسعود كان يقسمه أقساما لا على هذا الترتيب وقيل أحزاب القـرآن سـبعة فـالحزب الأول ثلاث سـور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سـور والخـامس إحـدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره فهكذا حزبه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرءونه كـذلك وفيه خـبر عن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشـار والأجـزاء فما سـوى هـذا محـدث الرابع في الكتابة يستحب تحسـين كتابة القـرآن وتبيينه ولا بـأس بالنقط والعلامـات بـالحمرة وغيرها فإنها تــزيين وتبــيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقــرؤه وقد كـــان الحسن وابن ســيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء وروي عن الشـعبي وإبـراهيم كراهية النقط بـالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك وكـانوا يقولـون جـردوا القـرآن والظن بهـؤلاء أنهم كرهـوا فتح هـذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسما للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغيـيرا وإذا لم يـؤد إلى محظـور واسـتقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محـدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وأنها بدعة حسـنة إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها وبعضهم كان يقول أقـرأ من المصـحف في المنقـوط ولا أنقطه بنفسي وقـال الأوزاعي عن يحـيى بن أبي كثـير كـان

القرآن مجردا في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوالا بأس به فإنه نور له ثم أحدثوا بعده نقطا كبارا عند منتهى الآي فقالوا لا بأس به يعرف به رأس الآية ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال وما تنقيطها قال يعربون الكلمة بالعربية قال أما إعراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الحذاء دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط وقيل إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءا وإلى أقسام أخر الخامس الترتيل هو المستحب في هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا حديث نعتت أم سلمة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح وقال ابن عباس رضي الله عنه لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة وقال أيضا لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال هما في الأجر سواء واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال السادس البكاء البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا حديث اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقال صالح المري قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا حديث إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب السابع أن يراعي حق الآيات فإذا مر بآية سجدة سجد وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة وفي القرآن أربع عشرة سجدة وفي الحج سجدتان وليس في ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون فيقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك وإذا قرأ قوله تعالى ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا فيقول اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وكذلك كل سجدة ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد وقد قيل في كمالها أنه يكبر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم وزاد زائدونالتشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموما الثامن أن يقول في مبتدأ قراءته أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد

لله وليقل عند فراغه من القراءة صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحي القيوم وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر وإن مر بمرجو سأل وإن مر بمخوف استعاذ يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا قال حذيفة صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح حديث حذيفة كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ فإذا فرغ قال ما كان يقول صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماما وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس معضلا التاسع في الجهر بالقراءة ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الإسرار ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية وفي لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة حديث فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية قال وفي لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثاني وفي الخبر العام يفضل عمل السر على العلانية سبعين ضعفا حديث يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي حديث خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص وفي الخبر لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء حديث لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء رواه أبو داود من حديث البياضي دون قوله بين المغرب والعشاء والبيهقي في الشعب من حديث علي قبل العشاء وبعدها وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب فرفع سعيد صوته وقال يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة ويدل على استحباب الجهر ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك حديث أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك ففي الصحيحين من حديث عائشة أن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلانا الحديث ومن حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة الحديث ومن حديث أيضا إنما أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن الحديث وقد قال صلى الله عليه وسلمإذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته حديث إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته

رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضي الله عنهم مختلفي الأحوال فمر على أبي بكر رضي الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال إن الذي أناجيه هو يسمعني ومر على عمر رضي الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ومر على بلال وهو يقرأ آيا من هذه السورة وآيا من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال صلى الله عليه وسلم كلكم قد أحسن وأصاب حديث مروره صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة الحديث تقدم في الصلاة فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته أيضا تتعلق بغيره فالخير المتعدي أفضل من اللازم ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فإن كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور ولهذا نقول قراءة القرآن في المصاحف أفضل إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه وقد قيل الختمة في المصحف بسبع لأن النظر في المصحف أيضا عبادة وخرق عثمان رضي الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرؤون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رضي الله عنه في السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعي شغلكم الفكر عن القرآن إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح العاشر تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم حديث زينوا القرآن بأصواتكم أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب وقال عليه السلام ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن حديث ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن زاد مسلم لنبي حسن الصوت وفي رواية له كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضي الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله حديث كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتي استمع إليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات واستمع صلى الله عليه وسلم أيضا ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طويلا ثم قالصلى الله عليه وسلم من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد حديث استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن الحديث قال الترمذي حسن صحيح وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ علي فقال يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه

وسلم إني أحب أن أسمعه من غيري فكان يقـرأ وعينا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم تفيضان حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ فقال يا رسـول الله اقـرأ وعليك أنـزل فقـال إني أحب أن أسمعه من غيري الحديث متفق عليه من حـديث ابن مسـعود واسـتمع صـلى الله عليه وسـلم إلى قـراءة أبي موسى فقـال لقد أوتي هـذا من مزامـير آل داود فبلغ ذلك أبا موسى فقال يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا حديث استمع إلى قراءة أبي موسى فقـال لقد أوتي هـذا من مزامـير آل داود متفق عليه من حـديث أبي موسى ورأى هيثم القارىء رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال فقـال لي أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا وفي الخـبر كـان أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحـدهم أن يقـرأ سـورة من القـرآن وقد كـان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حـتى يكـاد وقت الصـلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا في صلاة إشارة إلى قوله عز وجل ولذكر الله أكـبر وقـال صـلى الله عليه وسـلم من اسـتمع إلى آية من كتـاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة حديث من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نـورا يـوم القيامة وفي الخبر كتب له عشر حسـنات أخرجه أحمد من حـديث أبي هريـرة من اسـتمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضـاعفة ومن تلاها كـانت له نـورا يـوم القيامة وفيه ضعف وانقطاع وفي الخبر كتب له عشر حسنات ومهما عظم أجر الاسـتماع وكـان التـالي هو السبب فيه كان شريكا في الأجر إلا أن يكون قصده الريـاء والتصـنع البـاب الثـالث في أعمـال البـاطن في التلاوة وهي عشـرة فهم أصل الكلام ثم التعظيم ثم حضـور القلب ثم التـدبر ثم التفهم ثم التخلي عنموانع الفهم ثم التخصـيص ثم التـأثر ثم الـترقي ثم التـبري فالأول فهم عظمة الكلام وعلـوه وفضل الله سـبحانه وتعـالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه وكيف تجلت لهم تلك الصـفة في طي حـروف وأصوات هي صـفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصـول إلى فهم صـفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسـماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسـبحات نـوره ولـولا تثـبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطـاق لسـماع كلامه كما لم يطق الجبل مبـادي تجليه حيث صـار دكا ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق ولهـذا عـبر بعض العـارفين عنه فقـال إن كل حـرف من كلام الله عز وجل في اللـوح المحفـوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطـاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللـوح فيرفعه فيقله بـإذن الله عز وجل ورحمته لا بقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ولقد تأنق بعض الحكمـاء في التعبـير عن وجه اللطف في إيصـال معـاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسـان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلا لم يقصر فيه وذلك أنه دعابعض الملـوك حكيم إلى شـريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه فقال الملك أرأيت ما تـأتي به الأنبيـاء إذا ادعت أنه ليس بكلام النـاس وأنه كلام الله عز وجل فيكف يطيق النـاس حمله فقـال الحكيم إنا رأينا النـاس لما أرادوا أن يفهمـوا بعض الـدواب والطـير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقـولهم مع حسـنه وتزيينه وبـديع نظمه فـنزلوا إلى درجة تمـيـز البهـائم وأوصـلوا مقاصـدهم إلى بـواطن البهـائم بأصـوات يضـعونها لائقة بهم من النقر والصـفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقـوا حملها وكـذلك النـاس يعجـزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات الـتي سـمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الـذي سـمعت به الـدواب من النـاس ولم يمنع ذلك معـاني الحكمة المخبـوءة في تلك الصـفات من أن شـرف الكلام أي الأصـوات لشـرفها وعظم لتعظيمها فكـان الصـوت للحكمة جسـدا ومسـكنا والحكمة للصـوت نفسا وروحا فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكـان الـروح فكـذلك أصـوات الكلام تشـرف للحكمة الـتي فيها والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قـاهر السـلطان نافذ الحكم في الحق والباطل وهو

القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقول قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفـذوا بأبصـارهم ضـوء عين الشـمس ولكنهم ينـالون من ضـوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط فـالكلام كالملك المحجـوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكنـون عنصـرها وكـالنجوم الزهـرة الـتي قد يهتـدي بها من لا يقف على سـيرها فهو مفتـاح الخـزائن النفيسة وشـراب الحيـاة الذي من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معـنى الكلام والزيـادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه الثـاني التعظيم للمتكلم فالقـارئ عند البداية بتلاوة القـرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقـــرؤه ليس من كلام البشر وإن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قـال لا يمسه إلا المطهـرون وكما أن ظـاهر جلد المصـحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجـوب عن بـاطن القلب إلا إذا كـان متطهـرا عن كل رجس ومسـتنيرا بنـور التعظيم والتوقـير وكما لا يصـلح لمس جلد المصـحف كل يد فلا يصـلح لتلاوة حروفه كل لسـان ولا لنيل معانيه كل قلب ولمثل هـــذا التعظيم كـــان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصـــحف غشي عليه ويقــول هو كلام ربي هو كلام ربي فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضــره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صـفاته وجلاله وأفعاله فـإذا حضر بباله العـرش والكرسي والســموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والـــدواب والأشـــجار وعلم أن الخـــالق لجميعها والقـادر عليها والـرازق لها واحد وأن الكل في قبضة قدرته مـترددون بين فضـله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضـله وإن عـاقب فبعدله وأنه الـذي يقـول هـؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهـؤلاء إلى النـار ولا أبـالي وهـذا غاية العظمة والتعـالي فبـالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام الثالث حضور القلب وترك حديث النفس قيل في تفسير يا يحيى خذ الكتاب بقوة أي بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكـون متجـردا له عند قراءته منصـرف الهمة إليه عن غـيره وقيل لبعضـهم إذا قـرأت القـرآن تحـدث نفسك بشيء فقال أو شيء أحب إلي من القرآن حـتى أحـدث به نفسي وكـان بعض السـلف إذا قـــرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهـــذه الصـــفة تتولد عما قبلها من التعظيم فـــإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يسـتأنس به القلب إن كـــان التـــالي أهلا له فكيف يطلب الأنس بـــالفكر في غـــيره وهو في متـــنزه ومتفرجوالـذي يتفـرج في المتنزهـات لا يتفكر في غيرها فقد قيل إن في القـرآن ميـادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديـابيج ورياضا وخانـات فالميمـات ميـادين القـرآن والـراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحاميمات ديابيج القـرآن والمفصل رياضه والخانات ما سوى ذلك فإذا دخل القارىء الميـادين وقطف من البسـاتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الريـاض وسـكن غـرف الخانـات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفـرق فكـره الرابع التـدبر وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سـماع القـرآن من نفسه وهو لا يتدبره والمقصود من القراءة التدبر ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالبـاطن قـال علي رضي الله عنه لا خـير في عبـادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فلـيردد إلا أن يكـون خلف إمـام فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بـالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه وكذلك إن كان في تسبيح الركـوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهـذا وسـواس فقد روى عن عـامر بن عبد قيس أنه قـال الوسـواس يعتريـني في الصـلاة فقيل في أمر الـدنيا فقـال لأن تختلف في الأسـنة أحب إلي من ذلك ولكن يشتغل قلبي بمـوقفي بين يـدي ربي عز وجل وأنى كيف انصـرف فعد ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديـــني ولكن يمنعه به عن الأفضل ولما ذكر ذلك للحسن قـــال إن كنتم صـــادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عنـدنا ويـروى أنه صـلى الله عليه وسـلم قـرأ بسم الله الـرحمن الـرحيم

فرددها عشرين مرة حديث أنه قرأ بسم الله الـرحمن الـرحيم فرددها عشـرين مـرة رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضـعيف وإنما رددها صـلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها وعن أبي ذر قال قام رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي إن تعذبهم فـإنهم عبـادك وإن تغفر لهم حـديث أبي ذر قـام رسـول الله صــلى الله عليه وســلم فينا ليلة بآية يرددها وهي إن تعــذبهم فــإنهم عبــادك أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صـحيح الآية وقـام تميم الـداري ليلة بهـذه الآية أم حسب الـذين اجـترحوا السـيئات الآية وقـام سـعيد بن جبـير ليلة يـردد هـذه الآية وامتـازوا اليـوم أيها المجرمون وقال بعضهم إني لأفتتح السورة فيوقفـني بعض ما أشـهد فيها عن الفـراغ منها حـتى يطلع الفجر وكـان بعضـهم يقـول آية لا أتفهمها ولا يكـون قلـبي فيها لا أعد لها ثوابا وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولــولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها وعن بعض السـلف أنه بقي في سـورة هود سـتة أشـهر يكررها ولا يفـرغ من التـدبر فيها وقـال بعض العـارفين لي في كل جمعة ختمة وفي كل شـهر ختمة وفي كل سـنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سـنة ما فـرغت منها بعد وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه وكان هذا أيضا يقول أقمت نفسي مقـام الأجـراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسـانهة الخـامس التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشـتمل على ذكر صـفات الله عز وجل وذكر أفعاله وذكر أحـوال الأنبياء عليهم السلام وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا وذكر أوامـره وزواجـره وذكر الجنة والنـار أما صـفات الله عز وجل فكقوله تعـالى ليس كمثله شـيء وهو السـميع البصـير وكقوله تعـالى الملك القـدوس السـلام المـؤمن المهيمن العزيز الجبـار المتكـبر فليتأمل معاني هذه الأسماء والصـفات لينكشف له أسـرارها فتحتها معانمدفونة لا تنكشف إلا للموفقين وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله صـلى الله عليه وسلم شـيئا كتمه عن النـاس إلا أن يـؤتى الله عز وجل عبـدا فهما في كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم حـديث علي ما أسر إلي رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم شـيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال سألنا عليا فقلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سـوى القـرآن قال لا والذي فلق الحبة وبـرأ النسـمة إلا أن يعطي الله عبـدا فهما في كتابه الحـديث وهو عند البخاري بلفظ هل عندكم من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ما ليس في القـرآن وفي رواية وقال مرة ما ليس عند الناس ولأبي داود والنسـائي فقلنا هل عهد إليك رسـول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس قـال لا إلا ما في كتـابي هـذا الحـديث ولم يــــذكر الفهم في القـــرآن وقـــال ابن مســـعود رضي الله عنه من أراد علم الأولين والآخـرين فليثـور القـرآن وأعظم علـوم القـرآن تحت أسـماء الله عز وجل وصـفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعـثروا على أغوارها وأما أفعاله تعـالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله إذا الفعل يــدل على الفاعل فتــدل عظمته على عظمته فينبغي أن يشــهد في العقل الفاعل دون الفعل فمن عــرف الحق رآه في كل شــيء إذ كل شــيء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق ومن لا يــراه في كل ما يــراه فكأنه ما عرفه ومن عرفه عــرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه لا أنه سيبطل في ثـاني الحـال بل هو الآن باطل إن اعتــبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتــبر وجــوده من حيث إنه موجــود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبـات وبطريق الاسـتقلال بطلان محض وهـذا مبـدأ من مبادىء علم المكاشفة ولهـذا ينبغي إذا قـرأ التـالي قوله عز وجل أفـرأيتم ما تحرثـون أفرأيتم ما تمنون أفرأيتم الماء الذي تشربون أفـرأيتم النـار الـتي تـورون فلا يقصر نظـره على الماء والنار والحرث والمني بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشـكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشـريفة من السـمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصــفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعـالى أولم ير الإنســان

أنا خلقناه من نطفة فـإذا هو خصـيم مـبين فليتأمل هـذه العجـائب ليـترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة الـتي منها صـدرت هـذه الأعـاجيب فلا يـزال ينظر إلى الصـنعة فـيرى الصانع وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام فإذا سمع منها كيف كـذبوا وضـربوا وقتل بعضـهم فليفهم منه صفة الاسـتغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جـرى عليهم فليكن فهمه منه استشـعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبـار في نفسه وأنه إن غفل وأسـاء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية وكذلك إذا سـمع وصف الجنة والنـار وسـائر ما في القـرآن فلا يمكن استقصـاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمـات ربي ولو جئنا بمثله مـددا ولـذلك قـال علي رضي الله عنه لو شئت لأوقـرت سـبعين بعـيرا من تفسـير فاتحة الكتـاب فـالغرض مما ذكرنـاه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصـــــــاء فلا مطمع فيه ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى ومنهم من يستمع إليك حتى إذاخرجـوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم والطـابع هي الموانع التي سـنذكرها في موانع الفهم وقد قيل لا يكـون المريد مريـدا حـتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغني بالمولى عن العبيد السـادس التخلي عن موانع الفهم فـإن أكـثر النـاس منعـوا عن فهم معـاني القـرآن لأسـباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجـائب أسـرار القـرآن قـال صـلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت حديث لـولا أن الشياطين يحومون على قلوب بـني آدم لنظـروا إلى الملكـوت تقـدم في الصـلاة ومعـاني القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن الحواس ولم يـدرك إلا بنـور البصـيرة فهو من الملكـوت وحجب الفهم أربعة أولها أن يكـون الهم منصـرفا إلى تحقيق الحـروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بـالقراء ليصـرفهم عن فهم معـاني كلام الله عز وجل فلا يـزال يحملهم على ترديد الحـرف يخيل إليهم أنه لم يخـرج من مخرجه فهـذا يكـون تأمله مقصـورا على مخـارج الحـروف فـأنى تنكشف له المعـاني وأعظم ضـحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس ثانيها أن يكون مقلـدا لمـذهب سـمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجـرد الاتبـاع للمسـموع من غـير وصـول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيده معتقـده عن أن يجـاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غـير معتقـده فصـار نظـره موقوفا على مسـموعه فـإن لمع بـرق على بعد وبـدا له معـنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقـال كيف يخطر هـذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فـيرى أن ذلك غـرور من الشـيطان فيتباعد منه ويحـترز عن مثله ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجـاب وأرادوا بـالعلم العقائد الـتي اسـتمر عليها أكـثر الناس بمجـرد التقليد أو بمجـرد كلمـات جدلية حررها المتعصـبون للمـذاهب وألقوها إليهم فأما العلم الحقيقي الـذي هو الكشف والمشـاهدة بنـور البصـيرة فكيف يكـون حجابا وهو منتهى المطلب وهـذا التقليد قد يكـون بـاطلا فيكـون مانعا كمن يعتقد في الاسـتواء على العرش التمكن والاستقرار فـإن خطر له مثلا في القـدوس أنه المقـدس عن كل ما يجـوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يسـتقر ذلك في نفسه ولو اسـتقر في نفسه لانجر إلى كشف ثـاني وثـالث ولتواصل ولكن يتسـارع إلى دفع ذلك عن خـاطره لمناقضـته تقليـده بالباطل وقد يكون حقا ويكـون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الـذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغـور البـاطن كما ذكرنـاه في الفـرق بين العلم الظـاهر والبـاطن في كتـاب قواعد العقائد ثالثها أن يكون مصـرا على ذنب أو متصـفا بكـبر أو مبتلى في الجملة بهـوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه وهو كـالخبث على المـرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجـــاب للقلب وبه حجب الأكـــثرون وكلما كـــانت الشـهوات أشد تراكما كما كـانت معـاني الكلام أشد احتجابا وكلما خف عن القلب أثقـال

الدنيا قرب تجلي المعنى فيه فالقلب مثل المـرآة والشـهوات مثل الصـدأ ومعـاني القـرآن مثل الصور التي تتراءى في المـرآة والرياضة للقلب بإماطة الشـهوات مثل تصـقيل الجلاء للمرآة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إذا عظمت أمتي الـدينار والـدرهم نـزع منها هيبة الإسـلام وإذا تركـوا الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر حرمـوا بركة الـوحي حـديث إذا عظمت أمتي الدينار والـدرهم نـزع منها هيبة الإسـلام وإذا تركـوا الأمر بـالمعروف حرمـوا بركة الـوحي رواه ابن أبي الـدنيا في كتـاب الأمر بـالمعروف معضلا من حـديث الفضل بن عياض قال ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال الفضيل يعـني حرمـوا فهم القـرآن وقد شـرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتـذكير فقـال تعـالى تبصـرة وذكـرى لكل عبد منيب وقال عز وجل وما يتذكر إلا من ينيب وقال تعالى إنما يتذكر أولوا الألباب فالـذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخـرةفليس من ذوي الألبـاب ولـذلك لا تنكشف له أسـرار الكتـاب رابعها أن يكـون قد قـرأ تفسـيرا ظـاهرا واعتقد أنه لا معـنى لكلمـات القـرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عبـــاس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفســـير بـــالرأي وأن من فسر القـرآن برأيه فقد تبـوأ مقعـده من النـار فهـذا أيضا من الحجب العظيمة وسـنبين معـنى التفسير بالرأي في الباب الرابع وأن ذلك لا ينـاقض قـول علي رضي الله عنه إلا أن يـؤتي الله عبدا فهما في القرآن وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقـول لما اختلفت النـاس فيه السابع التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمـرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمـأمور وإن سـمع وعـدا أو وعيـدا فكمثل ذلك وإن سـمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتـاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ولذلك قـال تعـالى ما نثبت به فـؤادك فليقـدر العبد أن الله ثبت فـؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى وكيف لا يقدر هذا والقـرآن ما أنـزل على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لرسـول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتـاب فقـال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم وما أنـزل عليكم من الكتـاب والحكمة يعظكم به وقـال عز وجل لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون وأنزلنا إليك الذكر لتـبين للنـاس ما نـزل إليهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم واتبعـوا أحسن ما أنـزل إليكم من ربكم هـذا بصـائر للناس وهـدى ورحمة لقـوم يوقنـون هـذا بيـان للنـاس وهـدى وموعظة للمتقين وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارىء الواحد مقصود فما له ولسائر النــاس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القـرآن فكأنما كلمه الله وإذا قـدر ذلك لم يتخذ دراسة القـرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مـولاه الـذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضـاه ولـذلك قـال بعض العلمـاء هـذا القـرآن رسـائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهـوده نتـدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات وكـان مالك بن دينار يقول ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض وقال قتادة لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قـال تعـالى هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا الثـامن التـأثر وهو أن يتـأثر قلبه بآثـار مختلفة بحسب اختلاف الآيـات فيكــون له بحسب كل فهم حـال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحـوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيـات القـرآن فلا يـرى ذكر المغفـرة والرحمة إلا مقرونا بشـروط يقصر العـارف عن نيلها كقوله عز وجل وإني لغفـار ثم أتبع ذلك بأربعة شـروط لمن تـاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقوله تعالى والعصر إن الإنسـان لفي خسر إلا الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات وتواصـوا بـالحق وتواصـوا بالصـبر ذكر أربعة شـروط وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى إن رحمة الله قريب من المحسنين فالإحسان يجمع الكل وهكـذا من يتصـفح القـرآن من أوله إلى آخـره ومن فهم ذلك فجـدير بـأن يكـون حاله الخشـية والحزن ولذلك قـال الحسن والله ما أصـبح اليـوم عبد يتلو القـرآن يـؤمن به إلا كـثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته وقال وهيب بن

الـورد نظرنا في هـذه الأحـاديث والمواعظ فلم نجد شـيئا أرق للقلـوب ولا أشد اسـتجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره فتأثر العبد بـالتلاوة أن يصـير بصـفة الآية المتلـوة فعند الوعيد وتقييد المغفـرة بالشـروط يتضـاءل من خيفته كأنه يكـاد يمـوت وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير منالفرح وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولـدا وصـاحبة يغض صـوته ويكسر في باطنه حيـاء قبح مقـالتهم وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها وعند وصف النـار ترتعد فرائصه خوفا منها ولما قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ علي حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ علي الحديث تقـدم في البـاب قبله قـال فـافتتحت سـورة النسـاء فلما بلغت فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا رأيت عينيه تذرفان بالـدمع فقـال لي حسـبك الآن وهـذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية ولقد كان في الخائفين من خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد ومنهم من مات في سماع الآيات فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا في كلامه فإذا قال إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يـوم عظيم ولم يكن خائفا كـان حاكيا وإذا قـال عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصـير ولم يكن حاله التوكل والإنابة كـان حاكيا وإذا قـال ولنصـبرن على ما آذيتمونا فليكن حاله الصـبر أو العزيمة عليه حـتى يجد حلاوة التلاوة فإن لم يكن بهذه الصـفات ولم يـتردد قلبه بين هـذه الحـالات كـان حظه من التلاوة حركة اللســان مع صـــريح اللعن على نفسه في قوله تعـــالى ألا لعنة الله على الظالمين وفي قوله تعـالى كـبر مقتا عند الله أن تقولـوا ما لا تفعلـون وفي قوله عز وجل وهم في غفلة معرضون وفي قوله فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحيـاة الـدنيا وفي قوله تعالى ومن لم يتب فأولئك هم الظـالمون إلى غـير ذلك من الآيـات وكـان داخلا في معنى قوله عز وجل ومنهم أميون لا يعلمـون الكتـاب إلا أمـاني يعـني التلاوة المجـردة وقوله عز وجل وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضـون لأن القـرآن هو المـبين لتلك الآيـات في السـموات والأرض ومهما تجاوزها ولم يتـأثر بها كـان معرضا عنها ولذلك قيل إن من لم يكن متصفا بأخلاق القـرآن فـإذا قـرأ القـرآن نـاداه الله تعالى مالك ولكلامي وأنت معرض عـني دع عنك كلامي إن لم تتب إلي ومثـال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمـارة مملكته وهو مشـــغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو تـــرك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاسـتهزاء واسـتحقاق المقت ولـذلك قـال يوسف بن أسـباط إني لأهم بقـراءة القـرآن فـإذا ذكـرت ما فيه خشـيت المقت فاعـدل إلى التسـبيح والاسـتغفار والمعـرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل فنبـذوه وراء ظهـورهم واشـتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم اقـرءوا القـرآن ما ائتلفت عليه قلـوبكم ولانت له جلـودكم فـإذا اختلفتم فلسـتم تقرءونه وفي بعضـها فـإذا اختلفتم فقوموا عنه حديث اقرءوا القـرآن ما ائتلفت عليه قلـوبكم ولانت له جلـودكم فـإذا اختلفتم فلستم تقرءونه وفي بعضها فإذا اختلفتم فقوموا عنه متفق عليه من حديث جنـدب بن عبد الله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله ولانت جلودكم قـال الله تعـالى الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلـون وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن أحسن النـاس صـوتا بـالقرآن الـذي إذا سـمعته يقـرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى حديث إن أحسن الناس صـوتا بـالقرآن الـذي إذا سـمعته يقـرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم لا يسـمع القـرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل حديث لا يسمع القـرآن من أحد أشـهى ممن يخشى الله تعالى رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكـره أبو القاسم الغـافقي في كتـاب فضـائل القـرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلا فالمؤنة في تحريك اللسـان بحروفه خفيفة ولذلك قال بعض القراء قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقـرأ ثانيا فـانتهرني وقال جعلت القرآن علي عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل فـانظر بمـاذا يـأمرك وبمـاذا ينهاك وبهذا كـان شغلالصـحابة رضي الله عنهم في الأحـوال والأعمـال فمـات رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا سـتة اختلف

في اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقـرة والأنعـام من علمائهم حديث مات رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن عشـرين ألفا من الصـحابة لم يحفظ القــرآن منهم إلا ســتة اختلف في اثــنين منهم وكــان أكــثرهم يحفظ الســورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم قلت قوله مات عن عشرين ألفا لعله أراد بالمدينة وإلا فقد رويا عن أبي زرعة الــرازي أنه قــال قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى وأما من حفظ القــرآن على عهـده ففي الصحيحين من حـديث أنس قـال جمع القـرآن على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعـاذ بن جبل وزيد وأبو زيد قلت ومن أبو زيد قـال أحد عمومـتي وزاد ابن أبي شـيبة كالمصـنف من رواية الشـعبي مرسلا وأبو الـدرداء وسعيد بن عبيد وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمـرو اسـتقرئوا القـرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مـولى أبي حذيفة ومعـاذ بن جبل وأبي بن كعب وروى ابن الأنباري بسنده إلى عمر قال كان الفاضل من أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في صــدر هــذه الأمة من يحفظ من القــرآن الســورة ونحوها الحــديث وســنده ضـعيف وللترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة قـال بعث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتي على رجل من أحـدثهم سنا فقال ما معك يا فلان قال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم الحـديث ولما جـاء واحد ليتعلم القـرآن فـانتهى إلى قوله عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يــره حـديث الرجل الـذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يــره ومن يعمل مثقــال ذرة شرا يره فقال يكفني هذا وانصرف فقال النبي صلى الله عليه وسـلم انصـرف الرجل وهو فقيه أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمـرو قـال أتي رجل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال أقرئـني يا رسـول الله الحديث وفيه فأقرأه رسول الله صـلى الله عليه وسـلم إذا زلـزلت حـتى فـرغ منها فقـال الرجل والذي بعثك بـالحق لا أزيد عليهما أبـدا ثم أدبر الرجل فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أفلح الرويجل أفلح الرويجل ولأحمد والنسائي في الكبرى من حـديث صعصـعة عم الفرزدق أنه صـاحب النصة فقـال حسـبي لا أبـالي أن لا أسـمع غيرها قـال يكفي هـذا وانصــرف فقــال صــلى الله عليه وســلم انصــرف الرجل وهو فقيه وإنما العزيز مثل تلك الحالة الــتي من الله عز وجل بها على قلب المــؤمن عقيب فهم الآية فأما مجـــرد حركة اللسان فقليل الجدوى بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بـأن يكـون هو المـراد بقوله تعـالى ومن أعـرض عن ذكـري فـإن له معيشة ضـنكا ونحشـره يـوم القيامة أعمى وبقوله عز وجل كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسـان والعقل والقلب فحظ اللسـان تصـحيح الحـروف بالترتيل وحظ العقل تفسـير المعـاني وحظ القلب الاتعـاظ والتـأثر بالانزجـار والائتمـار فاللسـان يرتل والعقل يـترجم والقلب يتعظ التاسع الترقي وأعني به أن يترقى إلى أن يســمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقـدر العبد كأنه يقـرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو نــاظر إليه ومســتمع منه فيكــون حاله عند هــذا التقــدير الســؤال والتملق والتضرع والابتهال الثانية أن يشهد بقلبه كـأن الله عز وجل يـراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحســانه فمقامه الحيــاء والتعظيم والإصــغاء والفهم الثالثة أن يــرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعـام به من حيث إنه منعم عليه بل يكــون مقصــور الهم على المتكلم موقــوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصـحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجـات الغـافلين وعن الدرجة العليا أخـبر جعفر بن محمد الصـادق رضي الله عنه قال والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حـتى خر مغشـيا عليه فلما سـرى عنه قيل له في ذلك فقال ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلمبها فلم يثبت جســمي

لمعاينة قدرته ففي مثل هــذه الدرجة تعظم الحلاوة ولــذة المناجــاة ولــذلك قــال بعض الحكماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسـمعه من رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كـأني أسـمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء الله بمنزلة أخـرى فأنا الآن أسـمعه من المتكلم به فعنـدها وجـدت له لـذة ونعيما لا أصبر عنه وقـال عثمـان وحذيفة رضي الله عنهما لو طهرت القلـوب لم تشـبع من قـراءة القـرآن وإنما قـالوا ذلك لأنها بالطهارة تـترقى إلى مشـاهدة المتكلم في الكلام ولـذلك قـال ثـابت البنـاني كابـدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل ففـروا إلى الله ولقوله ولا تجعلـوا مع الله إلها آخر فمن لم يـره في كل شيء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شـيئا من الشرك الخفي بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل العاشر التبري وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفـات إلى نفسه بين الرضا والتزكية فـإذا تلا بآيـات الوعد والمـدح للصـالحين فلا يشـهد نفسه عند ذلك بل يشـهد الموقـنين والصـديقين فيها ويتشـوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم وإذا تلا آيـات المقت وذم العصـاة والمقصـرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشـفاقا ولـذلك كـان ابن عمر رضي الله عنهما يقـول اللهم إني أسـتغفرك لظلمي وكفـري فقيل له هـذا الظلم فما بـال الكفر فتلا قوله عز وجل إن الإنسان لظلوم كفـار وقيل ليوسف ابن أسـباط إذا قـرأت القـرآن بمـاذا تـدعو فقـال بمـاذا أدعو أسـتغفر الله عز وجل من تقصـيري سـبعين مـرة فـإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قربه فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها ومن شهد القــرب في البعد مكربه بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخـرى في البعد أسـفل مما هو فيه ومهما كـان مشــاهدا نفسه بعين الرضا صــار محجوبا بنفسه فــإذا جــاوز حد الالتفــات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكـوت قـال أبو سـليمان الـداراني رضي الله عنه وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخــوه من الغد فقال له وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت فقـال لـولا ميعـادي معك ما أخبرتك الـذي حبســني عنك إني لما صــليت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحــدث من الموت فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حـتى أصـبحت وهـذه المكاشـفات لا تكـون إلا بعد التـبري عن النفس وعـدم الالتفـات إليها وإلى هواها ثم تخصص هـذه المكاشـفات بحسب أحـوال المكاشف فحيث يتلو آيـات الرجـاء ويغلب على حاله الاستبشـار تنكشف له صـورة الجنة فيشـاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عـذابها وذلك لأن كلام الله عز وجل يشـتمل على السـهل اللطيف والشـديد العسـوف والمرجو والمخـوف وذلك بحسب أوصــافه إذ منها الرحمة واللطف والانتقــام والبطش فبحسب مشــاهدة الكلمــات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها إذ يسـتحيل أن يكـون حالة المسـتمع واحـدا والمسـموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضـبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبـار متكـبر لا يبـالي وكلام حنـان متعطف لا يهمل الباب الرابع في فهم القـرآن وتفسـيره بـالرأي من غـير نقل لعلك تقـول عظمت الأمر فيما سـبق في فهم أسـرار القـرآن وما ينكشف لأربـاب القلـوب الزكية من معانيهفكيف يستحب ذلك وقد قـال صـلى الله عليه وسـلم من فسر القـرآن برأيه فليتبـوأ مقعده من النـار حـديث من فسر القـرآن برأية فليتبـوأ مقعـده من النـار تقـدم في البـاب الثــالث من العلم وعن هــذا شــنع أهل العلم بظــاهر التفســير على أهل التصــوف من المقصرين المنسوبين إلى التصـوف في تأويل كلمـات في القـرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإن صح ما قاله أهل التفسـير فما معـنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره وإن لم يصح ذلك فما معـنى قوله صـلى الله عليه وسـلم من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظـاهر التفسـير فهو مخـبر عن حد نفسه وهو مصـيب في الإخبـار عن نفسه ولكنه

مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم حديث الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم تقدم قول علي في الباب إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه قال علي رضي الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم وقال صلى الله عليه وسلم إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا حديث إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا تقدم في قواعد العقائد ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع وقال علي كرم الله وجهه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار وقال أبو الدرداء لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها وقد قال بعض العلماء لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر وقال آخرون القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة حديث تكرير النبي صلى الله عليه وسلم البسملة عشرين مرة تقدم في الباب قبله لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير وقال ابن مسعود رضي الله عنه من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها فيكف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه حديث اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ أعربوا وسنده ضعيف وقال صلى الله عليه وسلم في حديث علي كرم الله وجهه والذي بعثني بالحق نبيا ليفترقن أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يموج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد حديث علي والذي بعثني بالحق لتفترقن أمتي على أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعو إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم الحديث بطوله وهو عند الترمذي دون ذكر افتراق الأمة بلفظ ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهولالحديث وفي حديث حذيفة لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت يا رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك فقال تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك قال فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة حديث حذيفة في الاختلاف والفرقة بعده فقلت ما تأمرني إن أدركت ذلك قال تعلم كتاب الله واعمل بما به الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وفيه تعلم كتاب الله واتبع ما فيه ثلاث مرات وقال علي كرم الله وجهه من فهم القرآن فسر به جمل العلم أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا يعني الفهم في القرآن وقال عز وجل ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما سمى ما آتاهما علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى

الإدراك فيه فأما قوله صلى الله عليه وسلم من فسر القرآن برأيه ونهيه عنه حديث النهي عن تفسير القرآن بالرأي غـريب صـلى الله عليه وسـلم وقـول أبي بكر رضي الله عنه أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي إلى غير ذلك مما ورد في الأخبـار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي فلا يخلو إما أن يكـون المـراد به الاقتصـار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاسـتقلال بـالفهم أو المـراد به أمـرا آخر وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه أحـدها أنه يشـترط أن يكــون ذلك مســموعا من رســول الله صــلى الله عليه وســلم ومســندا إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسـهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسـمعوه من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وكذا غـيرهم من الصـحابة رضي الله عنهم والثـاني أن الصـحابة والمفسـرين اختلفـوا في تفســير بعض الآيــات فقــالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وســماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسـموعا لـرد البـاقي فتـبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحـروف الـتي في أوائل الســور ســبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل إن الر هي حــروف من الــرحمن وقيل إن الألف الله واللام لطيف والــراء رحيم وقيل غــير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا والثالث أنه صـلى الله عليه وسـلم دعا لابن عبـاس رضي الله عنه وقـال اللهم فقه في الـدين وعلمه التأويل حـديث دعائه لابن عبـاس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل تقدم في الباب الثاني من العلم فإن كـان التأويل مسـموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معـنى تخصيصه بـذلك والرابع أنه قـال عز وجل لعلمه الـذي يستنبطونه منهم فأثبت لأهل العلم استنباطا ومعلوم أنه وراء السماع وجملة ما نقلنـاه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السـماع في التأويل وجـاز لكل واحد أن يستنبط من القـرآن بقـدر فهمه وحد عقله وأما النهي فإنه يـنزل على أحد وجهين أحدهما أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتـأول القـرآن على وفق رأيه وهواه وليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأي والهـوى لكـان لا يلـوح له من القرآن ذلك المعنى وهـذا تـارة يكـون مع العلم كالـذي يحتج ببعض آيـات القـرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه وتارة يكــون مع الجهل ولكن إذا كــانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الــذييوافق غرضه ويــرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكـون قد فسر برأيه أي رأيه هو الـذي حمله على ذلك التفسـير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه وتارة قد يكون له غرض صـحيح فيطلب له دليلا من القــرآن ويســتدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به كمن يــدعو إلى الاســتغفار بالأســحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم تسحروا فإن في السحور بركة حـديث تسـحروا فـإن في السحور بركة تقدم في البـاب الثـالث من العلم ويـزعم أن المـراد به التسـحر بالـذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله عز وجل إذهب إلى فرعـون إنه طغى ويشـير إلى قلبه ويـومئ إلى أنه المـراد بفرعـون وهـذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسـينا للكلام وترغيبا للمسـتمع وهو ممنــوع وقد تســتعمله الباطنية في المقاصد الفاســدة لتغرير النــاس ودعــوتهم إلى مذهبهم الباطل فيـنزلون القـرآن على وفق رأيهم ومـذهبهم على أمـور يعلمـون قطعا أنها غير مـرادة به فهـذه الفنـون أحد وجهي المنع من التفسـير بـالرأي ويكـون المـراد بـالرأي الــرأي الفاسد الموافق للهـوى دون الاجتهـاد الصـحيح والــرأي يتنـاول الصـحيح والفاسد والموافق للهـوى قد يخصص باسم الـرأي والوجه الثـاني أن يتسـارع إلى تفسـير القـرآن بظاهر العربية من غير اسـتظهار بالسـماع والنقل فيما يتعلق بغـرائب القـرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقـديم والتـأخير فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجـرد فهم العربية كـثر غلطه ودخل في زمـرة من يفسر بـالرأي فالنقل والسـماع لا بد منه في ظـاهر التفسـير أولا ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاســتنباط والغــرائب الــتي لا تفهم إلا بالســماع كثيرة ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجـوز التهـاون بحفظ

التفسـير الظـاهر أولا ولا مطمع في الوصـول إلى البـاطن قبل إحكـام الظـاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر الــبيت قبل مجاوزة الباب أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك فـإن ظـاهر التفسـير يجـري مجـرى تعليم اللغة الـتي لا بد منها للفهم وما لا بد فيه من السـماع فنـون كثيرة منها الإيجار بالحـذف والإضـمار كقوله تعـالى وآتينا ثمـود الناقة مبصـرة فظلمـوا بها معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها فالناظر إلى ظـاهر العربية يظن أن المـراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ولم يـدر أنهم بمـاذا ظلمـوا غـيرهم أو أنفسـهم وقوله تعالى وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم أي حب العجل فحذف الحب وقوله عز وجل إذا لأذقناك ضعف الحيـاة وضـعف الممـات أي ضـعف عـذاب الأحيـاء وضـعف عـذاب المـوتى فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فصـيح اللغة وقوله تعالى واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها أي أهل العـير فالأهل فيهما محـــذوف مضـــمر وقوله عز وجل ثقلت في الســـموات والأرض معنـــاه خفيت على أهل السـموات والأرض والشـيء إذا خفي ثقل فأبـدل اللفظ به وأقيم في مقـام على وأضـمر الأهل وحذف وقوله تعالى وتجعلون رزقكم أنكم تكـذبون أي شـكر رزقكم وقوله عز وجل وآتنا ما وعدتنا على رسلك أي على ألسنة رسلك فحذف ألسنة وقوله تعالى إنا أنزلناه في ليلة القدر أراد القرآن وما سبق له ذكر وقال عز وجل حتى توارت الحجـاب أراد الشـمس وما سبق لها ذكر وقوله تعـالى والـذين اتخـذوا من دونه أوليـاء ما نعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي يقولون ما نعبدهم وقوله عز وجل فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصـابك من سـيئة فمن نفسك معنـاه لا يفقهـون حـديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فإن لم يرد هـذا كـان مناقضا لقوله قل كل من عند الله وسـبق إلى الفهم منه مـذهب القدرية ومنها المنقـول المنقلب كقوله تعـالى وطـور سينين أي طورسيناء سلام على إل ياسين أي على الياس وقيل إدريس لأن في حرف ابن مسعود سلام على إدراسين ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام في الظاهر كقوله عز وجل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شـركاء إن يتبعـون إلا الظن وقوله عز وجل قـال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم معناه الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقـدم والمـؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عز وجل ولـولا كلمة سـبقت من ربك لكـان لزاما وأجل مسـمى معنـاه لـولا الكلمة وأجل مسـمى لكـان لزاما ولولاه لكان نصبا كـاللزام وقوله تعـالى يسـألونك كأنك حفى عنها أي يسـألونك عنها كأنك حفي بها وقوله عز وجل لهم مغفـرة ورزق كـريم كما أخرجك ربك من بيتك بـالحق فهـذا الكلام غـير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السـابق قل الانفـال لله والرسـول كما أخرجك ربك من بيتك بـالحق أي فصـارت أنفـال الغنـائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كـارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هـذا النـوع قوله عز وجل حـتى تؤمنـوا بالله وحده إلا قـول إبـراهيم لأبيه الآية ومنها المبهم وهو اللفظ المشـترك بين معن من كلمة أو حرف أما الكلمة فكالشيء والقـرين والأمة والـروح ونظائرها قـال الله تعـالى ضـرب الله مثلا عبـدا مملوكا لا يقـدر على شـيء أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل وضـرب الله مثلا رجلين أحـدهما أبكم لا يقـدر على شـيء أي الأمر بالعـدل والاسـتقامة وقوله عز وجل فـإن اتبعتـني فلا تسـألني عن شـيء اراد به من صـفات الربوبية وهو العلـوم الـتي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها العارف في أوان الاستحقاق وقوله عز وجل أم خلقوا من غير شي أم هم الخالقون أي من غير خالق فربما يتوهم به أنه يـدل على أنه لا يخلق شـيء إلا من شيء وأما القـرين فكقوله عز وجل وقـال قرينه هـذا ما لـدى عتيد ألقيا في جهنم كل كفـار أراد به الملك الموكل به وقوله تعـالى قـال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كـان أراد به الشـــيطان وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه الأمة الجماعة كقوله تعـــالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وأتباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد صلى الله عليه وسـلم ورجل جـامع للخير يقتدي به كقوله تعالى إن إبراهيم كـان أمة قانتا لله والأمة الـدين كقوله عز وجل إنا وجـــدنا آباءنا على أمة والأمة الحين والزمـــان كقوله عز وجل إلى أمة معـــدودة وقوله عز وجل وادكر بعد أمة والأمة القامة يقال فلان حسن الأمة أي القامة وأمة رجل منفرد بـدين

لا يشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده حديث يبعث زيد بن عمــرو بن نفيل أمة واحــدة أخرجه النســائي في الكــبرى من حــديث زيد بن حارثة وأسماء بنت أبي بكر بإسنادين جيـدين والأمة يقـال هـذه أمة زيد أي أم زيد والـروح أيضا ورد في القــرآن على معــان كثـيرة فلا نطــول بإيرادها وكــذلك قد يقع الأبهــام في الحــروف مثل قوله عز وجل فــأثرن به نقعا فوســطن به جمعا فالهــاء الأولى كناية عن الحوافر وهي الموريـات أي أثـرن بـالحوافر نقعا والثانية كناية عن الإغـارة وهي المغـيرات صـبحا فوسـطن به جمعا جمع المشـركون فأغـاروا بجمعهم وقوله تعـالى فأنزلنا به المـاء يعني السحاب فأخرجنا به من كل الثمرات يعـني المـاء وأمثـال هـذا في القـرآن لا ينحصر ومنها التدريج في البيان كقوله عز وجل شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار وبان بقوله عز وجل إنا أنزلنــاه في ليلة مباركة ولم يظهر به أي ليلة فظهر بقوله تعالى إنا أنزلناه في ليلة القدر وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخـره غـير خـال عن هـذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقـديم وتـأخير ليكـون ذلك مفحما لهم ومعجـزا في حقهم فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمــور فهو داخل فيمن فسر القـــرآن برأيه مثل أن يفهم من الأمة المعـــنى الأشـــهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فــإذا ســمعه في موضع آخر مــال برأيه إلى ما ســمعه من مشــهورمعناه وتـرك تتبع النقل في كثـير معانيه فهـذا ما يمكن أن يكـون منهيا عنه دون التفهم لأســرار المعاني كما سبق فإذا حصل السماع بأمثال هـذه الأمـور علم ظـاهر التفسـير وهو ترجمة الألفاظ ولا يكفى ذلك في فهم حقائق المعاني ويدرك الفرق بين حقـائق المعـاني وظـاهر التفســير بمثــال وهو أن الله عز وجل قــال وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فظــاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضـادان في الظـاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يــرم من وجه ومن الوجه الــذي لم يــرم رمــاه الله عز وجل وكذلك قال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيـديكم فـإذا كـانوا هم المقـاتلين كيف يكـون الله سبحانه هو المعذب وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معـنى أمـرهم بالقتــال فحقيقة هــذا يسـتمد من بحر عظيم من علــوم المكاشـفات لا يغـنى عنه ظـاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف بعد إيضاح أمـور كثـيرة غامضة صـدق قوله عز وجل وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل اســتيفاء جميع لواحقه وما من كلمة من القــرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقـدر غـزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجـردهم للطلب ويكـون لكل واحد حد في الــــــترقي إلى درجة أعلى منه فأما الاســــــتيفاء فلا مطمع فيه ولو كـــــــان البحر مداداوالأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمــات الله عز وجل فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظـاهر التفسـير لا يغـنى عنه ومثاله فهم بعض أربــاب القلــوب من قوله صـلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعـوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعـوذ بك منك لا أحصى ثنــاء عليك أنت كما أثـنيت على نفسك حـديث قوله صـلى الله عليه وسـلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك الحـديث أخرجه مسـلم من حـديث عائشة أنه قبل له اسـجد واقـترب فوجد القـرب في السـجود فنظر إلى الصـفات فاستعاذ ببعضها من بعض فإن الرضا والسخط وصـفان ثم زاد قربه فانـدرج القـرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقـال أعـوذ بك منك ثم زاد قربه بما اسـتحيا به من الاسـتعاذة على بسـاط القـرب فالتجأ إلى الثنـاء فـأثنى بقوله لا أحصى ثنـاء عليك ثم علم أن ذلك قصـور فقال أنت كما أثنيت على نفسك فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ثم لها أغـوار وراء هـذا وهو فهم معـنى القـرب واختصاصه بالسـجود ومعـنى الاسـتعاذة من صـفة بصـفة ومنه به وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظـاهر التفسـير بل

هو استكمال له ووصـول إلى لبابه عن ظـاهره فهـذا ما نـورده لفهم المعـاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم تم كتاب آداب التلاوة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصـحبه وسلم يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات والله المستعان لا رب سواه.